



كبرتُ كثيراً يا أبي

عبدالمجيد التركي

شعر

غداً سأرتدي نظارة طبية،  
سأرى الأشياء بوضوح رجل ثمانيني  
وسأبدو أكثر نضوجاً وحكمة.

في طفولتي تمنيت أن أضع نظارةً على وجهي  
وأن يتساقط شعري، لأبدو عبقرياً..  
كان الصلع مرتبطاً بالذكاء في نظري  
وكان تفكيري غيباً.

قال لي الطبيب: ماذا ترى؟  
أرى أرواح الضحايا،  
وأرى بياض الفحم  
والدعوات المستجابة.

أبدو كالعابرة والمخترعين  
وأولئك الذين يفكرون بعمق..  
النظارة جعلتني أشعر بالخمس والأربعين سنة  
التي ليس فيها ما يستحق الرؤية.

الأطباء  
يضعون النظارة على أطراف أنوفهم  
ويقرأون الروشتة من خلف العدسات..  
وأطباء العيون  
يخلعون نظاراتهم حين ندخل إليهم،  
كي لا نقول في سرنا:  
"باب النجار مخلوع".

تذكرت نظارة أبي....  
كنت أرتديها لأرى نفسي كبيراً،  
وأرى مسامات يدي مثل مقبرة بعيدة،  
وهو يحذرني أنها ستسحب نظري..  
كيف استطاع مخترعها أن يصنع عينين من الزجاج  
ويجمّد فيهما كل هذا الوضوح؟

تذكرت نظارة ابني الصغير....  
حين ينام..  
أرتديها لتسحب نظري وأكون مثله،  
تمنيت لو قايضته بعيوني ويعطيني نظارته.

الرجل المغربي الذي يجلس أمام طبيب العيون  
ويقول له: (باغي نظاظر)،  
هو نفسه الرجل اليمني  
الذي قال للطبيب: (أشتي مَبَاصِرْ)..  
هو نفس النسخة المصابة بقصر النظر،  
نفس لغة العيون بترجمات عديدة.

أحتاج (مَبْصَرَة)  
لأرى ما يخبئه لي القدر،  
لأرى قلوب الأصدقاء،  
لأرى العطر وهو يتكوّن من الورود المسحوقة،  
لأرى الكنوز المخبوءة تحت جدران الأيتام  
ودناءة الأوكسجين في مناجم الفحم.

أتأمل جمجمتي في صور الأشعة،  
هذا ليس أنا..  
حدقاتي واسعة كأنني شبح  
وهذا المجدوع ليس أنفي..  
الكشافة حوّلتني إلى مومياء،  
جمجمة هايبل أفضل حالاً من هذه الرأس المسلوخة.

أتَحَسَّسُ حدقاتي الواسعة.....  
الديدان البيضاء تحيّي بعضها من نوافذ عيوني،  
ديدانُ تشبه الأرز الباكستاني،  
لستُ مغرماً بهذا الأرز كثيراً  
كنتُ أضع حصتي في نافذة الغرفة  
لعلّ الغربان تخرج من مسلسل "فلونة" لالتقاطها.

أحتاج إلى عيدان صينية  
لالتقاط كلِّ هذا الأرز  
الذي يملأ وجهي  
كي لا أتحوّل إلى اكتشاف أثري..  
سيجدونني بحالةٍ جيدة،  
هيكلي ما زال جديداً  
أحتفظ به  
منذ أربعين عاماً،  
دون أن تنكسر عظمة واحدة.

كبرت كثيراً..  
شعري يبيضُ كلَّ يوم  
دون أن أصل إلى معنى الوقار..  
بدأت باستهلاك النصف الآخر من عمري،  
أنتظر الشُّكر والضغط كل يوم  
وأأمل الذين يحملون نصف أجسادهم الميتة  
ويمشون بقدِّمٍ واحدة.

بدأت أتمرّن على قيادة الكرسي المتحرك  
وأفكر في ليونة الإسفنجة التي يلصقونها على العكاز..  
لا أزال محتفظاً بهيكلي العظمي  
دون أي كسر،  
لا أحب كلمة "هيكل"..  
..

بإمكانهم أن يتبرعوا بي لكلية الطب..  
أحب أن أقف بكل بلاهة الهيكل العظمي بجانب السبورة  
أتأمل طلاب العظام  
وهم يتفحصون مجتمتي  
وأسناني الصناعية،  
ويخمنون إن كنت رجلاً أو امرأة في حياتي السابقة.

أخشى أن يكسر أحدهم ساقي  
ليؤكد لزملائه  
أنني مصابٌ بنقص فيتامين (د)..  
أن يعبت آخر بغضاريف عمودي الفقري  
فأصبح عاجزاً عن الوقوف جوار السبورة.

قالت لي طيبة

إنها كانت تستعير جمجمةً من المشرحة  
وتعيدها في اليوم التالي بداخل كيس أسود،  
كالتي ترتديها الرؤوس قبل شنقها..  
كنت سأسألها:

هل كان الكيس مثقوباً لدخول الهواء؟  
أحتاج أن أفتح النافذة.

حين يصبح التنفس جزءاً من الروتين  
تحتاج إلى أنوفٍ كثيرةٍ لالتهام الأوكسجين،  
ومخارجٍ أخرى لكل هذا الهواء المحبوس في رئتيك  
كأنك بالونٌ في لحظاته الأخيرة.

أُتَظَاهَرُ بالتفاؤل..  
أوزعُ ابتساماتٍ مجانيةً على رُكَّاب الحافلة،  
وأنصحهم بالضحك والسخرية من الحياة..  
الألوان تؤذي عينيَّ المنقوعتين بالملح  
لذلك يلائمني اللون الأسود.

حين أنام  
أحلم بكيس أسود أخبئ فيه رأسي،  
الكيس الذي يرتديه أحدهم  
حين ينتقل من حياة إلى أخرى  
كي لا يرى شيئاً أثناء عبوره..  
حبل المشنقة ليس سوى آلة الزمن!!

أخاف من العيون التي تضع عدسات لاصقة،  
من الأظافر الطويلة الملوّنة،  
من صدور السيلكون..  
مخاوفي كثيرة، لا أريد البوح بكل التفاصيل:  
إبرة طبيب الأسنان التي تلمع في يده كنصل،  
الأورام التي يضعونها في علب زجاجية مليئة بالماء،  
الهيكل العظمي المصنوع من الجبس في معمل المدرسة،  
عين ذلك الطفل  
التي سقطت على الإسفلت فداستها سيارة عمياء.

أخاف سترة النجاة التي يضعونها تحت مقعد الطائرة،  
زوارق النجاة في فيلم التيتانك،  
ومخارج الطوارئ التي لا تتسع لهلعي.

أُحَدِّقُ، كلَّ مساءً، في زجاج الصالة المكسور  
أَتَخَيَّلُ عَيْنَ تَيْنٍ مرسومةً على الجدار،  
حمراء كأنها من عيون هوليود،  
فأحرك قدميَّ  
لأؤكد أنني لن أغرق في لعاب التين الساخن.

أسمع صوت "الندّاهة" باستمرار،  
تناديني من داخل المخدة  
تهمس وهي واقفة على شحمة أذني: "عبدالمجيب"،  
أفزع ومفاصلي ترتعش..  
أضيءُ الغرفة  
لأبحث عن شيء أزيلُ به الثلج المتجمد على جبهتي.

قطرة ماءٍ تتعلق بالحنفية  
كمظليّ يقفز لأول مرة..  
ساعة الحائط

تحصي عمرها الضائع مع البطاريات الصينية،  
وقميص مسكون برهاب الصابون  
خشية أن يفقد رائحتك.

كيف بإمكانك أن تنام  
وأنت انتهيت لتوّك  
من مشاهدة فيلم وثائقي عن مرض السرطان!!  
تحكّ جسمك بأظافر الخوف  
وتتخيل أن تحت كلّ حَكّة خلية سرطانية.

أرفع يدي عن شاشة الهاتف وأحْكُهَا بِأَسْنَانِي،  
رَقْبَتِي أَيْضاً..

كَأَنِّي دَخَلْتُ مَسَابِقَةَ لِلْحَسَاسِيَةِ.

يقولون في الفيلم:  
إِنْ تَجُنَّبَ السُّكَّرَ يَشْفِي مَرَضَى السَّرْطَانِ..  
بِالْأَمْسِ اشْتَرَيْتَ كَيْسَ سُكَّرٍ كَبِيراً،  
وَقَارُورَتَيْنِ مِنَ الْفِيْمَتُو  
الَّذِي يَجْعَلُكَ تَتَذَكَّرُ كُلَّ أَفْلَامِ مَصَاصِي الدَّمَاءِ  
وَأَنْتِ تَمْسِكُ بِكَأْسٍ دَامٍ  
وَتَتَحَسَّسُ أَنْيَابَكَ الَّتِي سَتَبْزَغُ فَجْأَةً..  
لَنْ تَخْشَى السَّرْطَانَ حِينَهَا  
لَأَنَّكَ لَمْ تَعُدْ بَشَرِيّاً.

أتذكر "محمد آدم"

ومشرحة جامعة صنعاء،

ورأس "زينب" وهو يسبح بداخل قنينة زجاجية

لا تكفي لاحتواء ابتسامتها،

وأطراف "حُسن" المقطوعة

وهي تحاول أن تعود لوحدها إلى البيت.

سأفضِّل الخلايا السرطانية

لأن "محمد آدم" يُلَمِّع أنيابه بالأعناق البيضاء،

ويتصرف كأولئك الذين ينامون بداخل توابيتهم

منذ مئات السنين.

لا شيء في هذا الليل سوى الحطب القطبي..  
يجود هذا الحطب ببعض النفحات  
كأنه أحد أقطاب الصوفية..

الحطب الذي كان بإمكانه أن يكون سريراً،  
تحول إلى أعواد ثقابٍ  
لينتقم من الغابات التي لم تحدثه عن حقيقة الفأس..  
الفأس التي بمقدورها أن تمنحه حياةً أخرى،  
كان تحول إلى حصانٍ خشبي..  
سأتحول إلى دبٍ قطبي  
لأجاري كل هذا البرود.

كلُّ الدببة صناعة صينية،  
لكنَّ عيونها ستضيء حين تلامس يديك  
وتدبُّ فيها الحياة..  
الدبدوبُّ الأحمر ما زال يتذكَّر سوق النجف،  
ويتحدَّثُ اللهجة العراقية.

أقذفه بأعواد القات  
حين يكون جالساً على التسريحة،  
أخرجه من الغرفة قبل أنام  
وأنا أتذكر كلَّ أفلام الرعب  
التي تتحدث فيها الدببة دون بطاريات  
وتتمشَّى في المطبخ  
بحثاً عن بيضة منسية.

أكره الدببة التي تنام في أحضان النساء..  
أكره النساء اللواتي يتمنّين أن يتحوّلن إلى أسماك  
وهن يتحدثن بكلّ بلاهة إلى الدبدوب  
ويتمسّحن به كما لو أنه قبر أحد الأولياء.

أفلام الرعب لم تعد تخيفني..  
ها أنا أجري في بيت مهجور  
هرباً من الأصابع الملتوية والمتقيّحة التي تمسك بريقي..  
الدبدوب أنزلته من فوق دولاب الملابس،  
يبتسم لي ابتسامةً مُوسرٍ يصافحُ يتيماً  
أخشى أن يسعل،  
أن يطلب مني إرجاعه إلى العراق،  
أن يخبرني برغبته في علبة بسكويت.

الدبدوب

نبتت له مخالبٌ طويلةٌ

وهو يحدثني عن أجداده النَّهريين

الذين كانوا

يتربَّصون بأسماء السلمون.

في هذا الليل  
لا يعينني المتنبى ولا الفراهيدي،  
عيناي يابستان  
وبداخلي مومياء  
تضغطُ بإبهامها على أحد أضلاعي  
وتلهو بالحصوات التي تملأ كليتي.

أحتاجُ مخدتي  
لأضع عليها رأساً مليئاً بالخوف،  
أدري أن الرأسَ مؤنثة،  
لكني أحبُّ تذكيرها،  
فالذكرى تنفع المؤمنين.

أحتاجُ مخدتي..  
تعبتُ من حمل هذا الرأس  
الذي أخطأته رصاصةُ ذات نهار جميل..  
الرأسُ الذي لم يلتفت إليه سوى امرأةٍ  
أعجبت بشعره الطويل،  
لم يعد طويلاً  
بعد أن مَحَت أصابعُ الحلاق كلَّ بصماتها.

أجلس على كرسي الحلاق  
فأتذكر كرسي الإعدام  
وتلك الإسفنجة التي لا بد أن تكون مبلولة على الرأس..  
أحدق في مرآة الحلاق فأرى زبائنه خلفي  
وكأنهم سيهتفون بصوت واحد: "الإسفنجة يابسة".

أنا واحدٌ من أولئك الذين يتشاءبون  
حين يرون قطعاً يتشاءب..  
أسافر بمخدتي  
لا أستطيع تحمُّل الحكّة التي تملأ مخدات الفنادق،  
يمرّ الحلاق شفرته على ذقني  
أتذكر قصص خيانة الحلاقين للملوك والرؤساء،  
وأرى الدم يشخب من وريدي، فتحمرُّ المرايا..  
ما شأني بهذه القصص؟  
لا أحب كلمة "يشخب"،  
يرشُّ الحلاق شفرته بالإسبرت المشتعل،  
يشوي الجرائم العالقة ثم يرشُّها بالماء..  
أسحب عن رقبتى منشفة الحلاقة،  
وأزيل الجرائم التي ماتت غرقاً.

ليس لديّ صور قبل عشر سنوات..  
لا أتذكر شيئاً في ذلك التاريخ،  
أحب الصور الطازجة التي تذكرني بما أنا عليه الآن.

لم أكن وسيماً في صغري،  
كان زميلي في الصف الخامس  
يكتب بيده البيضاء على طاولة الدرس  
وأنا أضع يدي على الكرسي وأجلس عليها..  
أتأمله باستمرار  
وأعدُّ الشرايين الصغيرة الحمراء تحت خده الأبيض،  
فألمس خدي بحثاً عن تلك الحُمْرة.  
عمليات التجميل لم تكن ذائعة الصيت،  
أتفحص أنفي أمام المرأة  
راودتني الظنون لسنوات طويلة أنه ليس أنفي.

الشعر على الوجه ليس مناسباً لذوي البشرة السمراء  
لذلك.. أجّزه باستمرار،  
أكّره كلمة "أجّزه"  
لكنها الكلمة المناسبة لكل هذا العشب.

كل عام دراسي  
ألتقط صورةً بالأبيض والأسود،  
أبدو وسيماً في الصورة  
لم تكن الكاميرات تلتقط اللون الأسمر..  
فرحت ذات يوم حين قال لي المصور:  
"الصورة أجمل من الأصل".

الشعر الأبيض الذي نبت في رأسي، بعشوائية،  
جعلني أبدو وسيماً بعض الشيء..  
لم أعد أضع يدي تحتي وأجلس عليها،  
لم أعد أخبرها في جيبتي حين أمشي برفقة أيادٍ بيضاء،  
يخبرني الحلاق باستمرار  
عن وجود صبغات تعيدني إلى سن المراهقة..  
أكره هذه السن التي أرهقتني دون فائدة،  
أغادر صالون الحلاقة وأنا أطمئن نفسي:  
هكذا أجمل  
هكذا أجمل.

سأنام  
قبل أن يذبحني الحلاق،  
قبل أن أرى الخلايا السرطانية  
تصعد على جدران الغرفة  
وتنسكب بداخل المزهريات  
أو تختبئ  
خلف إطارات الصور.

ليس لي برستيغ..  
أمشي وأتلفت كطفل مندهش بكل ما حوله،  
أرسم قلباً على غبار السيارات المركونة منذ زمن،  
أحيي نفسي برفع حاجبي  
في واجهات المحلات الزجاجية..  
أتوقع ألا أرى وجهي في مرايا الحلاقين  
كمصاصي الدماء..  
أتعامل مع نفسي  
كما لو أنني كائن خفي  
لا أحد يشعر بوجوده،  
رغم أنني لا أرتدي أي طاقة.

أنا الطفل الذي لا يريد أن يكبر..  
أخاف من حرارة الفِكْس  
ولصقات الظهر..  
من الشعر الأبيض  
المتساقط من مقص الحلاق..  
أهشُّ الشَّعر بسرعة  
فأتذكر أبي وهو على نفس الكرسي..  
"أباه"..  
لم أعد أقولها منذ عشرين عاماً،  
لكنني أسمعها من أولادي كل يوم.

الليل بغيضٌ يا أبي..  
يعرض عليّ صور الموتى والمفقودين،  
يذكرني بكل حوادث الطائرات  
التي شاهدتها في نشرات الأخبار.

ها أنا عالق بين برزخين كروح شريرة،  
أحسد النائمين في توابع هوليد  
وأفقد أنيابي  
كقصّاب يتحسّس سكاكين العيد..  
لم أعد ذلك الطفل  
الذي كان يكتب اسمه بحروف البسكويت  
ويتساءل: ما معنى "جلوكوز"؟

الحلاق لم يعد يضع تلك الخشبة تحتي  
لكنني ما زلت أتناوب  
حين أجلس على كرسي الحلاقة،  
يقول لي:  
"نعيماً يا عم!!"  
هو من أترابي،  
لكنه يطلي شعره  
بكل الصبغات الثلاثينية.

البردُ هذه الليلة يشبه أمواس الحلاقة الرديئة،  
وجسدك لم يعد يحتمل كل هذا السخاء..  
الأربعون بداية التعامل مع الفُكس وقهوة الزعتر،  
يتحول الجميعُ إلى أطباء أعشاب  
فيصفون لك اليانسون  
والليمون ومكافح الرياح،  
والمرق الدافئ  
الذي كانوا يسمونه "حساء" في مسلسل "فلونة".

لم يعد هناك مرق..  
ها هي "ماجي" تطبخ دجاجتها الأسطورية  
وتتعاهد بمائها الدول النامية.

ها أنت ترش العطر لتغطي على رائحة الفِكس  
التي تملأ رئتيك وقمصان نومك..  
ظهرك مليء بالثقوب  
التي تخلفها لواصق "جونسون" الأمريكية،  
لم يعد الحديث عن بنطلونات الجينز مناسباً،  
ولم يعد بإمكانك  
تعليق سلسلة على رقبتك  
وارتداء قبعة راعي البقر  
الذي كنت تشاهده في إعلانات مارلبورو،  
وهو يقود قطعاً من الخيول المتوحشة  
بسوطه الطويل.

تشبّث القناديل بالسقف  
كطفل يتشبّث بصدر أمه..  
قناديل نسيت حكاية الضوء  
وأصبحت تروي للظلام أساطير من اختلاقها..  
الغرفة تتنفسُ بهدوءٍ  
كأنها حوتٌ عملاق،  
والمرأة الوحيدة  
تعكس وجوهاً لا وجود لها  
سوى في مخيلتها المشروخة.

كأن تستيقظ من نومك  
وتقف بكل تلقائية أمام المرأة،  
وترى في وجهك شامةً جديدةً  
تتحسّسها بفزع رجلٍ يفيق من التخدير  
فيسأل: أين أنا؟  
وهو يتحسّس قدمه المبتورة..  
فيتذكر حقل الألغام  
والخوذ التي تتناثر كالبطيخ،  
وأصابع مقفولة على صور فوتوغرافية  
ملينة بالأطفال والحبيبات.

كم من الكوارث يلزمك لتكون صخرة؟  
قلبك ينتفخ مثل علكة في فم طفل،  
وأنت تتظاهر بانتظام التنفس  
وترسم ابتسامة تغطي نصف وجهك كمهرج مبتدئ.

تخرج يدك من أي نافذة تصادفك  
فتحييك الرياح من بعيد،  
تبلي سبابتك لمعرفة اتجاه الرياح  
كما يفعل التائهون في الأفلام..  
أصابعك فقدت ذاكرتها  
لم تعد قادرة على دغدغة طفل..  
حتى أصبعك الوسطى  
أصبحت مؤدبةً تجاه هذا العالم القذر.

تضعُ يدك اليمنى بداخل الشلاجة  
لعلَّ الطب يتوصَّل إلى إعادة الأطراف المبتورة..  
تضعُ يدك كاملة، فيتبادر إلى ذهنك تنور الحنيد  
والمسالخ المركزية،  
والختم الأزرق على أكتاف الكباش وأفخاذ الثيران..  
تشعر بالبرد...  
تغلِّق يدك وتضعها أمام فمك وتنفخ في الفراغ،  
تحتاج أن تقلِّم أظافرك  
وتخرج خيوط المانجو العالقة بين أسنانك  
وترفع أصبعك الوسطى في وجه الحياة.

يدُّ واحدةٌ تعني أنك لن تصفق للحقراء،  
لن تلوثَ إبهامك بحبر الانتخابات،  
لن تضطرَّ لمصافحة المنافقين صباح العيد.

شمالك لن تعلم شيئاً بعد الآن،  
ستتصدَّق بشفتيك ولسانك  
الذي كنت تلحق به طابع البريد،  
وستدَّخر بعض اللعب  
لتبصقه في وجه عابرٍ ينظر إليك شزراً..  
لا تحب كلمة "شزراً"  
فهي تذكرك بصوت المنشار الكهربائي،  
وبصوت الملعقة  
وهي تحكُّ الصحنَ لاقتلاع بقايا الأرز المحترق.

الظلام يعصُّني مثل كلب،  
أتحسَّس خوفي  
وأحاول تشذيب الفزع في حاجيَّ..  
أشعر بيدٍ تتجول في الغرفة،  
يد فقط..

لا أجرؤ على مصافحتها  
لا أحب ملامسة الغرباء..  
ما زالت أصابعها تتحرك،  
ترسم دائرةً بالسَّبَّابة والإبهام كتهديد..  
أضع عيني في تلك الدائرة  
كأنها منظار جاليليو.

يُدُّ وحيدة

ليس عليها ندوب توحى أنها مبتورة..

ربما أنها خلقت هكذا

لتربّت على أكتاف الحزاني،

تمسح على رؤوس الأيتام..

وتتبرّع في حفل خيري باسم: "فاعل خير".

تطرق نافذتك في ساعة متأخرة لتفزعك فقط،

تصفعك حين يرُنُّ المنبه،

تقرص أذنك حين تكون بحاجة إلى لفت نظر،

تعانقك حين يخذلك الأصدقاء

وتصافحك حين تشعر بالوحدة.

يدُّ لا تعرف معنى التلويح  
وليس لها أظافر كي تحكَّ ظهرك..  
أصابعها تعدُّ غرقى التيتانك  
وضحايا هيروشيما  
وملوك النفط  
وأرغفة كثيرة في مخيلات الجوع.

تقف على سبابتها وتدور كراقصة باليه..  
تتحول السبابة إلى حفار كهربائي،  
يطير القطن  
يتناثر الإسفنج  
أفتح لها النافذة لتطير قبل أن تخمش وجه الغرفة،  
قبل أن تنشرخ ذاكرة المرأة..  
سأنام.. لكن من سيحرس يدي؟

الأحلام تلوّح بيدها خجلاً،  
كمن يلوّح بيدٍ مقطوعة  
نسي أن يغطّيها بكُمّه الطويل..  
اليد المقطوعة  
التي رأيتها في طفولتي معلقة في باب اليمن  
كانت لأحد اللصوص..  
في اليوم التالي توقعت أن يعود هذا اللص لسرقة يده.  
  
كانت تصفق، وتعد النقود، وتصافح، وتداعب..  
ها هي معلقة مثل طُعْم،  
تلوّح لمحات المجوهرات ونساء الأثرياء  
والقرويين الذين يخبئون نقودهم في جيوب الملابس الداخلية،  
ويعلقونها على مرايا السيارات  
حين يعودون من المسبح.

أتذكرها باستمرار،  
تحنقني في أحلامي  
تدغدغني  
حين أسمع نكتةً عن سرقات البنوك،  
وتصافحني  
حين أخاف من الظلام.

أنا رجلٌ إيطالي،  
كل أحلامي تدور حول المعكرونة،  
أمشي من هذا الشارع  
وأ تأمل اللوحات المكتوبة بخط غريب..  
أبحث عن الحمام التي نراها في التلفزيون  
وهي تحط على سواعد المارة لالتقاط صورة  
أو حبة فوشار من فم فتاة جميلة،  
أبحث عن البجع الذي كان يتساءل "هولدن كولفليد"  
عن مصيرها حين تتجمد البحيرة في الشتاء،  
أبحث عن اللقالق كأنني أوتيت منطق الطير..  
عن "نيلز" الذي سقط في أحد شوارع ميلانو،  
من هنا مرَّ "نيلز" في رحلته مع البجع  
من هنا مر الغزاة أيضاً،  
لا تزال سيوفهم تنخرُ وجه الشارع الجميل.

هذا الشارع  
يعرف وجه الدبابات  
التي كانت تركض أمام عدسة المصور  
وتتباهى بطلقاتها  
كأنها عارضة أزياء..  
يعرف السبايا  
اللاتي كُنَّ يُسَحَبْنَ على وجوههن،  
وطفلٌ يقف في الناصية الأخرى  
يشير إليهن بجزرة كبيرة.

هذا الشارع يتذكر ميلاد أول عمود كهربائي..  
زرعوا هذا العمود  
في نفس الحفرة التي كانت تقف فيها المقصلة..  
الحفرة التي رجم أثرياء العرب فيها امرأة  
باعت ثديها برغيف خبز..  
الحفرة التي دفن فيها الكاهن كل أموال الكنيسة  
وخرج يتسول ضمادة لجروح المسيح،  
ذات الحفرة التي كانت تبيض فيها الديناصورات،  
ذات الحفرة التي سقط فيها العرب أثناء الفتوحات  
وهم يفرّون بمجوهرات النساء  
ورؤوس الأطفال.

العصافير تزقزق خارج النافذة  
وأنا أفكر بمآزق وجودية كثيرة:  
من قطع الحبل السري لبقرتنا  
التي وضعت أمس عجلها الأول؟  
وكيف دفنوا قدم جارتنا المقطوعة  
في كيس بلاستيكي بدل الكفن؟  
هذه القدم مليئة بذكريات الشوارع والأحذية الرخيصة..  
بالوقوف أمام المخبز الخيري  
ومشاهدة الثيران المعلقة من أقدامها..  
القدم المقطوعة التي امتلأت بمرارة الحياة أسماها الطبيب:  
(القدم السكري).  
قالت جارتنا لزوجها:  
الآن تحققت مقولة:  
(رِجل في الدنيا ورِجل في الآخرة).

للأقدام ذاكرة مليئة بالركلات والتعثر،  
والجري الخائف،  
بتعقُّن الجوارب،  
وثقوب يتم سدُّها من الداخل بقطعة كرتون..  
جارتنا لن تضطر لشراء الأحذية،  
والوقوف لمصافحة شخص لا تحبه،  
سيعذرهما الجميع لعدم حضور المناسبات.

رغم تنكُّرها بقدم بلاستيكية سمراء  
زوجها يفكر بالزواج من قدمين جديدتين،  
وهي تطلّي أظافرها الصناعية،  
كي لا يتذكر قدمها التي دفنها في حوش البيت  
بانتظار أن تنمو كشجرة.

أفكر بالمستقبل الذي ينتهي في مقبرة الرحمة المجاورة،  
بالظلام الذي ينتظر أجيالنا المضيئة،  
بالأطراف الصناعية  
التي سيحتاج إليها الأطفال.

أفكر أن أنام  
لكني خائف جداً..  
لم أعد أخاف من الظلام،  
ولا من صوت الكلب..  
ولا من أنبوبة الغاز الصدئة  
التي تنفجر في مطابخ الفقراء،  
أخاف أن أقضي بقية عمري في هذا المكان.

مثل علبة عصير ورقية  
يدهسها مراهق ليسمع صوت انفجارها،  
هكذا أتخيل الموت..  
دهسة واحدة وينتهي كل شيء..

في قريتنا يحسدون الذين يموتون يوم الجمعة  
وفي رمضان،  
يقولون إنه مات في يوم فضيل..  
قبل عام مات جارنا في مكة،  
جاؤوا لتهنئة أولاده وأرملته،  
يقولون: هنيئاً له..

وأرملته تقول: من يشقى علينا بعدك؟  
لم يكن في نظرها أكثر من صراف آلي.

الموت فلسفة غامضة  
وذهل مكشوف..  
تتجمد أصابعك وأنت تتخيل الموت،  
فتدعكُ جبينك  
كأنك تمسح هذه الأفكار من رأسك..  
ستموت بهدوء  
كما ينطفئ القنديل نهاراً  
دون أن يشعر بانطفائك أحد  
لأنك لست ترساً في عجلة الحياة.

لا فرق إن كنا فوق التراب أو تحته،  
نحن الموتى الذين يمشون على العكاكيز  
ويذّخرون لشراء الأطراف الصناعية..  
الذين يحلمون بامتلاك أنبوبة غاز  
وتعبئة خزان السيارة بالبنزين..  
نحن الموتى الذين خرجوا من توابيتهم منذ انقطعت مرتباتهم.  
لم يعد ثوب الستر كافياً..  
ضاق حين اتسع اللصوص،  
تساقطنا من شقوق هذا الثوب دون أن يلتقطنا أحد  
أو يسألنا:  
لماذا نمشي بنصف أجسامنا ك الزومبي؟  
حتى المراهقون أصبحوا هدفاً سهلاً للجلطات،  
ومراكز الأطراف لم تعد تثق بأي طرف.

تلاحقني أطيار الراحلين، وأصواتهم،  
أشاركهم موتهم كل يوم  
وأحرس الشقوق كي لا تتسرب منها الأغاني.

أنا الآن عالقٌ مثل رسالة بداخل قارورة،  
مثل حبة قمح في حلق الطاحون..  
للبقاء تكلفة باهظة،  
ماذا لو أن الموتى يخرجون للنوم في منازلهم  
ويعودون قبل أن يستيقظ حارس المقبرة؟  
يحتاجون لتفقد ملابسهم  
ومسح الغبار عن صورهم المعلقة،  
وقراءة الحكم المكتوبة في أوراق التقويم.

أرى صور القتلى  
تتحرك بداخل عيني قبل أن أنام،  
فأدرك ما معنى "صور متحركة"..  
ينهض القتلى،  
يمسحون وجوههم من الدماء  
ويأخذون أطرافهم المقطوعة في أكياس سوداء،  
ويخرجون من جيوبهم صوراً لأطفالهم ونسائهم  
فيقبلونها  
ويعيدونها إلى جيوبهم،  
ثم ينصرفون إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد  
ليبدأوا حياة جديدة.

يشغلني التفكير في الناس  
الذين عاشوا قبل خمسة آلاف سنة..  
كيف احتملوا الحياة دون شوكولاتة  
ودون سجائر، وأحذية  
دون أفلام وشفرات حلاقة!!

كيف اقتنعت النساء أن الحياة طبيعية  
دون حمالة صدر، ودون عطور  
ومخدرات مكتوب عليها أول حرف من أسمائهن؟  
أفكر في الأسماك  
التي لم تكن ترعبها فكرة أن تتحول إلى تونة،  
في الديناصورات  
التي لم تجد قلامة أظافر تناسب مقاسها.

الذين عاشوا قبل اختراع الإبرة والخيط  
قبل رؤية عارضات الأزياء،  
وسراويل شارلستون والجينز  
وأقلام ترسم حواجب ملونة..  
كانوا يكتحلون بالليل  
ويتناسلون في الظلام دون أي كاتالوج  
ودون أي رغبة،  
وهم يفكرون في أشياء أخرى  
أو يتحدثون عن طحن الحبوب،  
وعن جارهم  
التي تنتظر زوجها في النافذة منذ سنوات.

أغبطُ كبار السن  
الذين عاصروا كاميرا "بولارويد" الفورية..  
كانوا يحتلمون قبل مجيء الألوان  
ويرسمون بالفحم والطباشير..  
الحياة الرمادية في الصور تروقني كثيراً  
لم يعرفوا اللون الأحمر،  
كانوا يموتون بهدوء  
كما تنطفئ الشمعة  
دون أن يعرف أحدهم فصيلة دمه.

عشتُ بما يكفي  
لإفساد ذكريات طفولتي،  
لم أعد أفكر بمسلسل "ميمونة ومسعود"،  
لم أعد أفتح اليوتيوب  
لسماع أغنية "افتح يا سمسم"..  
فقدتُ كلَّ مقومات الحياة..  
أن تعيش دون مرتب لخمسـة أعوام  
ستعرف معنى الشعور بمطاطيتك.

الأمهاتُ يذرعن الشوارعَ بحثاً عن كرتون..  
أمهاتُ لا يليق بهن الانحناء لأجل قطعة حطب  
وفي أذهانهن رغيـفُ خبزٍ لم ينضج بعد.

لم يعد هناك شيء يغطي تشوهاتنا:  
الملابس نرتديها دون كي.. ودون خجلٍ أيضاً..  
جنبية الأب والجد لم تعد تمنحنا ذلك الوقار،  
السرويس أصبح بعيداً عن سياراتنا المتسخة،  
العطر..  
معجون الأسنان..  
تلميع الحذاء..  
دجاجة الجمعة..  
الاستحمام بماء ساخن..  
ابتسامة الزوجة حين عودتك من العمل..  
هذه التفاصيل أصبحت مستحيلة،  
لم يعد أحدٌ يسأل عن آخر نكتة..  
لا يستطيع رجل أن يضحك وهو يفكر في سعال زوجته  
التي تبسم وتتظاهر بالعافية.

أغبطُ الشهداء والقُتلى،  
الذين تمتلئُ بهم الجدران  
وصفحات التعازي  
وزجاج السيارات  
ومايكروفونات المساجد.

أحسد أولئك الغرقى  
بالقوارب المطاطية..  
هربوا من بشاعة أنظمتهم  
ليستقبلهم موت أنيق بربطة عنق وفرق إنقاذ  
وجميلات ينفخن الهواء في رئات الغرقى،  
وتغطية كاملة بأحدث الكاميرات  
في نشرات الأخبار.

أحتاج أن أنام كَقِطٍّ..  
أحسد القطط التي تنام تحت السيارات،  
سأنام تحت دبابه  
وسأملأ مفاصل الجنزير بالكسل.

لم يعد هناك ما يغري بالاستيقاظ،  
الفيس بوك مليء بالقتلى والجوعى  
تتحسّس رأسك ومعدتك طوال الوقت،  
فتشعر بدنوّ أجلك  
وتتخيل أطفالك يموتون جوعاً  
وأنت تضع وجوههم على الصور التي تراها.

تتذكر أنك دون مُرتب  
فتنسى كل اهتماماتك..  
ستسوء علاقتك بزوجتك  
حين ترى عجزك الجديد عن تعبئة اسطوانة غاز  
فتذكرك بعجزك القديم  
وتغاضيه عن لأجل نصف كيس قمح وقينة زيت  
وبعض الصلصة.

ستتحدث عن أضرار القات  
ومحاسن السجائر الرخيصة  
ستخبر أطفالك أن الكوليرا منتشر في الحلويات  
وفي الحقائق المدرسية المستوردة من بلاد الكفار،  
وبإمكانهم حمل الكتب في أكياس بلاستيكية آمنة.

"المرتب" .. واحدٌ من أسمائك  
وكامل كينونتك..  
ها أنت تفقد سلاحك ولسانك،  
وتشغل وقتك بملاحقة البثور التي تملأ وجهك.

تتذكر ذلك الكلب  
المرسوم في المناهج المدرسية القديمة  
والخُفّ المليء بالماء،  
تتذكر القطة التي حبستها امرأة  
ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض،  
الأرض التي أصبحت حقولاً من الجثث الطائفية  
لأن طريق الجنة محفوف بالمكاره.

في شارعنا تحدث أشياء سيئة،  
آخر الليل  
ألمح من نافذتي رجلاً ملثماً مثل "بات مان"  
وهو يجمع قناني الماء  
وعلب البيبسي الفارغة.

سيخرج رجلٌ آخر بعد قليل ليصرخ:  
"الصلاة يا عباد الله"..  
عادةً جديدةٌ تعلّمها مؤخراً،  
وسيخرج بائع البطاطا المسلوقة بعربته  
ويمشي باتجاه سوق "مذبح"..  
سيعود آخر النهار بأحلامٍ مذبوحة  
وهو يفكر كيف سيملأ أسطوانة الغاز!!

أردد اسم عاقل الحارة عشرات المرات كل يوم  
وأحتفظ برقمه في قائمة الهاتف،  
ليس بيني وبينه أي معرفة  
يقرأ اسمي بخطٍ عريض على اسطوانة الغاز فقط..  
لم يصادف وجهي في أي صحيفة،  
يؤمني أن أحتفظ برقمه لهذا الغرض.

صاحب ال(وايت) أيضاً  
وضعت رقمه في قائمة المفضلة،  
أتصل به كل أسبوع  
يأتي فأتذكر ذلك المقطع الترحيبي في فيلم "الرسالة"،  
وأتذكر ماء القرية المجاني  
الذي لا يضطرك إلى الاحتفاظ بأرقام الغرباء.

بائع البترول في السوق السوداء  
أتواصل به بين الحين والآخر،  
ولن أنسى غداً أن أرسل له:  
"جمعة مباركة يا غالي".

في القرية  
لن أتحدث عن الكوليرا  
لن أنشغل بأخبار الرئيس العالق في برزخ الرياض،  
ولن أضطر إلى مشاهدة القتلى  
وقراءة التعازي كل يوم..  
سأخفي عنهم أنني كنت موظفاً  
وأعيش بدون مرتب منذ خمس سنوات.

للمدينة قدرة على تدجين الجبال  
وتحويلها إلى مخازن للصواريخ..  
على تعبيد طريقك بالسواد..  
كل شيء في المدينة مقلب،  
يختصرون الرجولة في حبة زرقاء  
والشفاء في حبة سوداء..

سأعود إلى القرية،  
ما زال اسمي محفوراً على أحجارها  
التي اختبأت من شراهة الديناميت..  
ما زالت مكحلة الجامع الكبير تعرف عيوني،  
ما زال وجهي مرسوماً على زجاج النوافذ  
وأنا أبتسم لنفسي كل صباح  
وأجنب أن تنقسم صورتي في مرآة الصالة المشروخة.

أحتاج أن أعود إلى قريتي  
لأقف أمام بركة الحسيني  
وأراقب عبدالمجيد وهو خارج من البيت متأبطاً جزء عم،  
لست مغرماً بكلمة "متأبطاً"،  
إنها شبيهة بكلمة "لا مندوحة".

سأبحث في بركة الحسيني عن مهر أمي،  
ذلك الجنيه الذهبي  
الذي سقط فيها مقابل سطل من الماء الأخضر..  
وعن وجهها  
الذي كان ينعكس على صفحة الماء..  
فيضيء الماء.

ما زال باب السوق مليئاً بورد الليل،  
يغمض عينيه لحظة شروق الشمس،  
وكأنه يعيش بروح خفاش..  
ما زال الطريق إلى البيت مليئاً بالأصوات المرعبة  
التي كنت أختلقها  
كلما مشيت ليلاً من أمام المغناطيس،  
كم كانت تخيفني كلمة "المغناطيس"،  
مع أنه ليس سوى عمود نحاسي  
لجذب الصواعق.

أريد استعادة كلماتي المطبوعة،  
بعد أن تحولتُ إلى ثلاثة كتب  
اعترفتُ في الأول  
وأكدتُ في الثاني  
واحتضرتُ في الثالث..  
أفكر بإحراق الرابع  
لا أريد أن أكون مجرد رقم إيداع في دار الكتب،  
هذه ليست قصيدة نثر  
لن أكتب الآن شيئاً من هذا القبيل،  
سأغمض عينيّ متخيلاً لوحة الغلاف  
وموقناً بخلوه من الأخطاء اللغوية وعلامات الترقيم.  
سأرسم مسماراً في الجدار لأعلق عليه لوحة الغلاف  
فالطلاء لا يزال جديداً.

ذاكرتي سرقتها منشأً صديّ حين كنتُ شجرة..  
لم يعد صدئاً،  
صار يتذكر طعم الثلج  
وهو يسقط على الأغصان،  
يتذكر عاشقين  
تقاسما خبز اللهفة بجوار الجذع..  
يتذكر ثمرةً تنضج،  
فيشعر بالماء يجري في عروقه الحديدية..  
لم أعد أتذكر شيئاً  
سوى صراخ الأشجار،  
فأتحسس فمي  
الملئ بالمسامير الصدئة.

لا أثق بالمسامير المثبتة في الجدران،  
المسامير التي احتملت المسيح  
ولم تحمل صورة لحوض سمك وقط جائع  
يدرس سلوكياتها بعينين زائعتين..  
المسامير التي لا تخجل من حمل شهادات عليا  
لأشخاص عاطلين عن العمل،  
ولا تتني حين يعلقون عليها صورة طفل  
بشريط أسود على جانبها.

هذا المسمار كان مقصلة  
امتألت ذاكرتها بالرؤوس المتدحرجة..  
حين صدئت هذه المقصلة  
أدخلوها آلة حوّلتها إلى كومة من المسامير الالامعة.

عيناك مفتوحتان كحنفيٍّ محوق،  
لا أحب أن أسميه "صنبور"،  
هذا الاسم يصيبني بحكةٍ جلديةٍ  
ويذكرني بالمدرس المصري  
الذي كان يودُّ إدخال طربوشه الأزهري  
في رأسي المليء ب.....  
ما علينا.

عيناك مفتوحتان كحنفيٍّ محوق  
وأصابعك  
تتحسّس الفرش الإسفنجي  
وبقايا المناديل التي تدّخرها لليوم الأبيض.

تسعل كثيراً  
وتضع في جيبك منديلاً قطنياً  
يشبه منديل المدرّس المصري..  
كنتَ تتأملهُ وهو يبصق في المنديل  
ثم يعيده إلى جيبه،  
وتساءل:  
ما هي الحكمة من هذا؟

المناديلُ في يديك باستمرار  
لأن لسانك أصبح ناعماً مثل كبد ثور..  
لم تعد قادراً على البلع والبصاق،  
وإحدى عينيك ليست لك..

عينٌ ذات حدقةٍ كبيرةٍ كعيون الأرنب  
مليئةٌ بحقول الجزر،  
وعينك الأخرى لا ترى سوى اللحم الأبيض  
والأوراق النقدية الخضراء.

الأمر لا علاقة له بالعصب السابع..  
وجهك ينكمشُ كلما وقفتَ أمام مرآة،  
وصوتك بطيءٌ كأشرطة الكاسيت المعطوبة..  
المرايا ليست مغشوشة،  
والأصوات التي تسمعها  
هي عوادم لأشياء تحدث  
بداخل فمك المليء بالزوجة.

من يعيدني كما كنتُ  
فتى قروياً يحتفل بانتهائه من "ربع يس"  
ونصف عصا المدرّس الكفيف،  
الذي كان يمشي دون أن يستعين بعيون غيره.

هذا الكفيف يسمع صوت العلكة  
ويعرف هوية الأسنان التي تمضغها..  
يمشي في طرق القرية الوعرة بحفة سيارة جديدة،  
يقف أمام بيته، يتحسّس المفاتيح كلصٍّ متمرّس،  
ينفتح الباب بأول مفتاح مثل مغارة علي بابا،  
يطوي عصاه السحرية  
ويخلع نظارته الشمسية  
كأن الظلّ لا يؤذي خُصرة عينيه المخيفتين.

أعطي وجهي بقبعة  
كذلك الرجل الممدد بداخل قارب صغير  
لا يهمه أين سيتجه القارب،  
وزرقة السماء لم تعد تبهره.

لا شيء أفعله الآن  
سوى تذكُّر المدرسين المصريين  
ومناديلهم القطنية الملونة  
وهم يعيدونها بهدوء في جيوب سراويلهم  
بعد أن يملأوها بالبلغم.

الأساتذة المصريون  
كانوا أول من اكتشف شجرة الملوخية  
التي تنمو بعشوائية على سهول قريننا،  
لم يكن القرويون يعرفون الملوخية،  
لم تكن الأبقار تأكلها فاعتقدوا أنها من الأعشاب الضارة.

أعدُّ قبعاتهم البيضاء وهم يصلون الجمعة  
لأنَّ تأكد أنهم جميعاً بداخل المسجد  
وأنَّ عَصِيَّهم في المدرسة..  
أحدهم كان يتحدث عن الجامع الأزهر،  
فأُتخِيَّله مثل جامع شهاة،  
لا أدري يومها أين تقع مصر..

وقفت أمام الأزهر  
بشعر أبيض يطوّق رأسي..  
لم أدخل  
كي لا أفسد تلك المقارنة التي تخيلتها في طفولتي.

أستاذ العربية قال لنا إنه من بني سويف  
أخذ واحداً من أسناني اللبنة وقذفه باتجاه الشمس،  
أخبرته أن سن الغزال لن يكون ملائماً لفمي  
ضحك حتى سقطت قبعته..  
أضعها الآن على وجهي  
كما لو أنها آلة الزمن.

منذ عشرين عاماً لم أركض..  
لم يعد يخيفني المشي في شوارع مظلمة،  
ولم أعد أهرب من خيزرانة أبي..  
كنت عداءً ماهراً في طفولتي  
أقف على رأس جبل شهارة  
وأمدُّ رقبتني  
مثل وعلٍ يقرأ الجبال بحوافره الواثقة.

على سطح منزلنا في القرية  
أقف بعينين خائفتين  
وأصابع صغيرة قابضة على نصف بسكويتة،  
كانت سكين الجزار تلمع،  
وكانت عين الكبش تلمع  
وثوبي الصغير المبلول كان يلمع أيضاً..  
علّق الجزار رأس الكبش على الجدار  
ليشاهد لحمه وهو يتقطع،  
تدفعني يد معروقة لأدوس على دائرة كبيرة من الدم..  
تقول الأساطير:  
إن دماء الأضحية تشفي تشققات القدم،  
ويقول القرويون:  
الدوس على الدماء يقوي القلب..

سيكبر الأطفال قتلة،  
ستكون أقدامهم ناعمة  
وقلوبهم مليئة بالتشققات.

اليد المعروقة صفعني حين بكيت من الخوف،  
قالت لي: "أنت ابن أمك"..  
كيف ستغدو رجلاً وأنت تخاف من الدم؟  
لا أريد أن أكون رجلاً..  
عاقبتني اليد المعروقة بـ "قطر الحديد"،  
جاء عيد الأضحى بالجزار وسكينه اللامعة  
وجاءت بي تلك اليد المعروقة لأشاهد الذبح..  
رأس الكبش المعلق ينظر إليَّ  
وأنا أتمنى أن أفقد قدمي كي لا أتحنّ بالدم.

"ساعة الرحمن ذلحين".....  
تزغردُ رغم جفاف حلقك،  
الزغاريذُ واحدةً من مواهب لسانك المتعددة..  
تحدثنا عن يوسف وقمصانه الثلاثة..  
عن يونس وأسماك التونة،  
عن الفقيه الذي أطل برأسه،  
عن زبيب العرسان  
الذي يقولون إنه يهدئ آلام الأسنان،  
عن القشعريرة التي نلتقط لها صوراً  
فتبدو كحقول من القنافذ،  
وأنا أضغط على عيني كما لو أنها حبة عنب  
لإفراغها من بذور الملح.

نوافذُ كثيرة لم تعد تنفتح بداخلي،  
حتى باب بيتنا القديم صار مغلقاً..  
لم يعد قادراً على إصدار تلك الأصوات المربعة  
التي كان جدي يُسكتها بقليل من السمن البلدي،  
كأنه يضع نذوراً لهذا الباب المسكون بأصواتٍ  
كان يفشل في تقليدها.

أحسُّ ببراءٍ فاحشٍ كفأٍ حصل على طنٍّ من الجبنة..  
لا أحب كلمة فاحش، لأن وزنها لا يعجبني..  
في طفولتي  
كنت أعتقد أن "الخميرة" كلمة غير مؤدبة،  
وحين كبرتُ قليلاً اعتقدتُ أنها للمرضى  
فقد كانوا يسمونها "خميرة إسعاف".

لم أقرأ ألفية ابن مالك  
ولم أحاول قراءة المعلقات السبع،  
كان مدرسُ العربية  
يُسمعنا كلَّ الأبيات التي تحتوي على الجنس،  
لا أحب الفذلكة اللغوية وقصائد الوعظ،  
وقصيدة "يا كاتب الخط إن الخط أربعة" ..

العم سعيد العدني،  
بَوَّاب مدرسة "عمر المختار"  
كان يشتُم الباب المليء بالحِكم  
والأبيات التي تمجِّد العلم والخط ..  
حتى جدران الحمامات  
ملئية بالذكريات وأرقام التلفونات  
وأسماء بعض الرؤساء.

علي القرماني..  
كانت عيناه خضراوين..  
لا أحب كلمة "خضراوين"..  
كانت عيناه خضراء،  
لم يفكر بارتداء نظارة شمسية  
لإخفاء ذلك الرعب الأخضر..  
يحدثنا عن الإدغام والإقلاب  
وهو يتحسّس عقارب الساعة السحرية  
ثم يعيد غطاءها كأنه يغلق خزانة..  
وحين يطوي عصاه أخشى أن تتحوّل إلى حية،  
كان يحدثنا عن "برايل" كل يوم،  
حتى ظننا أنه نبي العميان.

الفتاة الكبيرة التي كانت تباع البطاطا  
نبتت لها أصبع سادسة،  
بائع الكبد المقلي الذي كان يعاني من الصرع..  
بائع الطعمية  
غزل البنات  
الغسوس الدافي،  
آيس كريم فيمتو،  
ممحاة برائحة الفراولة،  
مسطرة متحركة،  
حلوى راحة الحلقوم،  
بسكويت جلوكوز..  
كل هذه الملذات  
تجعلني أشعر بأنني في مدينة العجائب.

"عمر المختار" ..

مدرستي التي سرقت أسناني اللبينة ..

على بعد ستمائة متر

كنت ألوّح لأمي من ساحة المدرسة

وهي تلوّح بجنائها من سطح المنزل ..

لم تكن هذه البيوت قد نبتت

ولم تكن مقبرة الرحمة

قد اكتسبت كل هذه الشهرة.

في طفولتنا  
كنا نحبُّ رائحة الفيتامين الصفراء  
ونلحق غطاء علبة الصلصة  
أو نسرق ملعقة سيرلاك،  
ونتأمل أمهاتنا وهن يغزلن الصوف  
يشعلن التنور  
ينظفن البيت  
يطبخن الطعام  
يحممن الأطفال  
يعتنين بالأغنام والدجاج  
يجهزن حقائب أطفالهن رغم أميَّتهن..  
وحين أسمع كلمة "آلهة"  
أتخيل أُمِّي.

نحن هنا يا الله،  
تتحنّى الأمهاتُ بدماء أبنائهن  
ويلوحن بأيديهن المفجوعة،  
والأطفال يحاولون إنقاذ دفاترهم  
وحصّالاتهم  
التي فتحتها الصواريخ  
وأخذت كل الفكّة التي بداخلها.

لم يعد يهمني شيء..  
أحتاج إلى جبل صغير  
أضعه على قدميّ المرتعشتين،  
أصابعي تتهجّى كل شيء برهبة الاكتشاف الأول.

أحتاج أن أسمع صوتك يا الله،  
فقد حجبنا عنك العمائم واللّحي..  
أحتاج أن أضحك..  
علّمونا  
أن الضحك يميت القلب،  
وأنه قلة أدب  
ويُفقدُ الرجلَ وقارَه وهيئته..  
أنا طفلٌ يا الله،  
أحتاج أن أضحك لينبض قلبي أكثر.

نحن هنا يا الله..  
نحتاج إلى صراطك  
كي لا يسقط ما تبقى منا،  
نحتاج إلى حبلك  
بعد أن التفت كل الحبال  
على أعناقنا.

لم أعد ألتفت إلى التعازي،  
نفس الصبغة منذ قرون..  
أتحاشى قراءة النعي  
لأنني أقرأ اسمي في كل تعزية،  
فأعود لقراءتها مرة أخرى  
للتأكد من اسم الميت.

لا شيء يثيرني،  
أقرأ القصائد وأتوقف في السطر الرابع،  
أشتري الروايات وأكتفي بعناوينها..  
أفلام الخيال العلمي صارت محاكاة لـ"غراند ايزر"،  
الأفلام الوثائقية فقط تشد انتباهي  
لأن الحيوانات لا تعرف التمثيل..  
أحب الأفلام التي تغوص في قاع البحار  
فقد سئمت من الأرض..  
أحب النوم

لأنه يمنعني من الخروج  
والاضطرار لرؤية الموتى  
وهم يلصقون صورهم  
على زجاج السيارات.

نائمٌ منذ عشرين ساعة،  
أقوم فيها بممارسة "التَّسْفِيل"  
ولقاء الأموات،  
ورؤية الخوارق،  
وعقد صفقات الرضاعة الطبيعية  
 وإعادة تشغيل قطار سعوان.

عشرون ساعة..  
تترك فيها الأسماك بحرها لُبُقَع الزيت  
والنفط المتدفق من سفن المهربين..  
الأسماك تدفن نفسها في رمال الشاطئ  
وأخرى ترى أن التعليب مناسب لها،  
عزأؤها الوحيد في حفظ السلالة هي أسماك الزينة.

لن تستطيع العيش بين أمواج الملح،  
لم تسمع شيئاً عن البحر  
سوى ما تراه في التلفاز المعلق في الصالة..  
تظن أن البحر نوع من الكوايس  
لأنها ولدت في أقفاص زجاجية  
ولا تعرف سوى أصابع الأطفال  
التي تُحْيِيها من خارج الحوض.

الضوء الذي في آخر النفق  
قد يكون قطاراً مجنوناً،  
قد يكون دراجةً ناريةً مفخخة،  
قد يكون عيني قطة تلمعان في الظلام..  
لا أحتاج بصيص الأمل الذي يأتي بالتقسيط.  
الضوء الذي في آخر النفق يخيفني جداً..  
الظلام يذكرني بحوت يونس،  
أفزع لكمية اللزوجة في بطن الحوت  
وأذكر اللغز  
الذي وضعه مدرس التجويد على طاولتنا:  
"ما هو القبر الذي سار بصاحبه؟"  
لم يكن قبراً  
فقد كان مؤثثاً ودافئاً.

أُتَحَيَّلُ الحوت  
وهو يتعرض للفرم والضغط  
بداخل غُلْبٍ صغيرة،  
سيتوزع في قبور كثيرة  
تسير به في بلدان عدَّة..  
الصورة المرسومة على غلاف اللعبة  
لا تعبّر بالضرورة عن محتواها..  
الصورة لحوتٍ وسيم  
لا يستطيعُ حتى ابتلاع عصفور.

أثناء مثل قُطِّ  
لم يعد يستطيع النوم  
بعد أن امتلأت مخيلته بالعصافير وأسماك الزينة.

تحكُّني يدي فأبتسم

وأنتظر رزمة كبيرة من المال،

تحكُّني رجلي

فأوقن أن هناك من يغتابني الآن..

هذه الحكَّة ليست بكتيريا

أنا أغتسل كل يوم،

الديتول في بيتي بمثابة حِرْز،

وأعقِّم يديَّ بالإسبرت

كأنني طبيب متجه إلى غرفة العمليات.

تحكُّني يدي  
فأعدُّ نفسي بالذهاب إلى سوق "البليلي"،  
الأسماك هناك منفتحة جداً  
تبتسم من تحت الثلج إن لَوَّحتَ لها بفئة نقدية كبيرة  
وتقفز إلى بركة الزيت.  
أنسى كل محفوظاتي عن الكوليسترول،  
أعدُّ عيون الأسماك التي تطفو على الزيت  
يغرفها البائع بملعقة كبيرة  
لا تتسع لكل مشاهدات هذه العيون..  
للأسماك عيون خائفة تملأ الأفلام العلمية  
برهاب الحيتان والقروش،  
ثم تلتقي بها دون مبالاة على دكة البائع..  
حوض الأسماك بحر انفرادي،  
يشبه قفص العصافير المرسوم في كتاب القراءة.

كلُّ الأبواب مغلقة،  
أتأمل الفراغ  
وأكتب على الجدار: "هيت لك"..  
قطرة ماءٍ تتعلق بالحنفية  
كمظليّ يقفز لأول مرة..  
ساعةُ الحائط تحصي عمرها الضائع  
مع البطاريات الصينية،  
وقميصٌ مسكونٌ برهاب الصابون  
خشية أن يفقد رائحتك.

سأنام بعد لحظات..  
كمن يضع رأسه على مدقّ كبير  
ليتهشّم بضربة حظ..  
ربما تأخذني جنّة إلى شارع مظلم  
لأتبع آثار خطواتٍ كما يتبع النمل خيطَ السُّكَّر،  
أشعر بالرعب من الأحلام هذه الليلة..  
أحلامي يحدّدها نوع البيجامة التي أرتديها..  
يحدّدها مصداقية المأثورات  
التي أرددها خوفاً من الكوابيس،  
ويحدّدها مقدار الجوع  
حين أرى الكوليسترول يقاسمني اللقمة.

أريد أن أنام..

بداخل رأسي صوتٌ يردد:

"في البوسنة أعداء الخير ذبحوا الإسلام"،

وكأنني المسؤول عن مجازر الصرب؟

أحتاج صوتاً يرشدني إلى جرّة الذهب

المدفونة في مخيلتي،

سأتدبر أمر الفدية..

ربما أمنحهم عيناً كما فعل جارنا العجوز..

بريق الجنيهاات الذهبية

منحه قوة زرقاء اليمامة

رغم عينه الواحدة.

أخاف من الجن كثيراً،  
سأقبل بخريطة الكنز بدلاً عن النداء..  
لست بحاجة إلى سماع عبارة: "رزقك دَعَاكَ"،  
أصوات الجن مرعبة  
ما زلت أتذكر ضجيجهم حين سقطتُ في البئر،  
تظاهرت بالغيوبة  
وأصابعهم الناعمة  
تتحسّس وجهي كأنني كائن فضائي.

ربطت وسطي بالحبل ليسحبني أهل القرية،  
الجن الذين يملأون البئر  
تحولوا إلى حمام بري..  
غمزت لي حمامة عوراء كانت ترضع طفلها..  
تستطيع العين الواحدة أن تغمز،  
عصبت عينيَّ  
كما لو أنني خارج للتو من مستشفى العيون،  
كما يعصب البخيل كلتا يديه.

أنا خائف جداً..  
السندوتشات التي أكلتها منذ قليل  
لا أشعر بها في معدتي..  
أكتب هذا النص  
لأستأنس بضوء الموبايل فقط،  
مخدتي أصبحت بجوار النافذة  
من أخذها من تحت رأسي؟  
أُخرج من فمي شعرة طويلة حمراء  
فأقشعر..  
لا أحد من أسرتي يمتلك هذا اللون!

أصحو فجراً بكليتين جافتين  
أسكبُ الماءَ في جوفي  
كأنني أوقظ تلك المرأة التي أراها في أحلامي..  
أحتاج إلى التخلص من مرآة التسريحة  
التي تقف قبالة وجهي،  
فكلما تحركتُ أنظر إلى هذه المرأة  
لأتأكد أن الذي يتحرك فيها هو أنا.

كل يوم أتعثر بشعرة حمراء طويلة،  
أخفيها كي لا تتأكد زوجتي من شكوكها..  
بقي القليل من الشعر في رأس الجنينة  
التي ترسل لي كلّ يوم شعرةً  
وثرعب نومي باستمرار.

أستيقظ فزعاً  
إثر قفزة هائلة في الحلم..  
برّاد شاي كبير يتسع لكلّ أهل الحارة  
وعنزة ضخمة وضعت بين قرنيها مغناطيساً مدوراً  
ليصبح رأسها ذا قطبٍ واحد.

أستيقظ لأبحث عن "جعالة العيد":

زيب بلدي،  
لوز أمريكي،  
كاجو أسترالي،  
فستق حلي مغمّس بالبارود  
وفارغ كالخراطيش.

بيتنا المهجور أراه بأحلامي،  
أجري بداخله فتفتح كلُّ أبوابه المطلّة على السلام..  
أصحو بقدمين متعبتين وكتف مليء بالكدمات،  
يتعد باب البيت حين تلاحقني الجنية  
وهي تمشي على الهواء بشعر رمادي  
وقدمين معروقتين تشبهان نبتة الجنسّينج.

يدي اليسرى تقشعرُّ خوفاً  
بينما اليمنى مشغولة بكتابة هذا النصّ اللعين..  
الجنية تختبئ خلف المرأة،  
تمسك يدي حين أضعها على مقبض باب الحمام..  
أقفُ تحت الدوش فأشعر بيد ثالثة تغسل شعري،  
أفتح عينيّ المليئتين بالشامبو  
فأرى أطراف فستانها وهي تخرج من نافذة الحمام.

أكتب الآن وأنا أشعر بها تحت السرير  
لكني لا أجرؤ على الحركة،  
تسقط حبة فستق من يدي،  
تندحرج كأن هناك يداً تشير لها..  
لن ألتقطها  
فقد لحسها الشيطان.

سيهطل الفجر بعد قليل من صوت المؤذن..  
هذا المؤذن زميلي في الابتدائية  
صوته الجميل جعله نجم الإذاعة المدرسية  
وجعلنا نحسده على مستقبله الفني  
رغم غيابه في مادة النحو.

في هذه اللحظات يغتسل المؤذن من الجنابة على عجل،  
يخرج في هذا البرد وهو يعدُّ كلَّ قطرة ماء تسقط،  
فتسقط معها خطاياها.

بعد قليلٍ  
ستخرج الشمس من تحت الثور  
الذي يحمل الأرض على أحد قرنيه..  
أيها الثور:  
لقد كبر قرناك منذ دهور  
وتسبَّباً في زيادة الحرارة لاقتربنا من الشمس..  
أفكر بهذا الثور منذ طفولتي  
وفي القرن الشاغر:  
لماذا لا يضع الأرض بين قرنيه ليُريح رُكبتيه؟

الأرض مليئة بالعلف أيها الثور الجائع..  
أتخيلك كالثيران الإسبانية  
وأنت تخرج الشرر من منخريك الغاضبين،  
اجعل الأرض تدور فوق قرنك  
مثل كرة قدم فوق أصبع مهرج..  
وحين تباغتنا هزة أرضية  
سنعرف أن الروماتيزم  
قد تسلل إلى عظامك.

أفكر أن أذهب إلى المطبخ  
لأغلق أسطوانة الغاز  
رغم أنها فارغة..  
أعد الطماطم  
وأسنان الثوم المتسوسة،  
أتفقد أنفاس أطفالي النائمين،  
ألقي بقبلة في الهواء وأغلق الباب بهدوء..  
أتفحص ما تبقى من الكهرباء في منظم البطارية..  
أبحث عن قطعة خبز  
عن خياره مختبئة  
خلف أحد الصحون.

كل مساء أحدد لنفسي موعداً للنوم،  
أراجع عن مواعيدي  
لا أحب النوم حسب توقيت المنبه..  
أستلقي وأضع رجلاً على رجل لأعدّ أصابع قدمي  
وأحركها لأتأكد أنها ما زالت تتحرك  
رغم أنني لا أعاني من شيء..

ظل أصابعي يجعلها كبيرة على جدار الغرفة  
أتذكر عَجَّ بن عُنق،  
قالت جدتي إنه كان يقف في البحر ولا يغمر ركبتيه  
يلتقط سمكة ويرفعها بيده ليشويها بلهب الشمس..  
حين يمل من الأسماك  
سيلتهم الثور الذي يحمل الأرض على قرن واحد  
وينتهي كل شيء..

هذا السّحر يغري بالخروج،  
أتخيل المشائين في الظلم  
والسارين إلى حبيباتهم..  
بائع الكباب يوقظ زوجته  
لترسم بالخيار والطماطم قلباً كبيراً على وجه السّلطة..  
لم يرسم قلباً طيلة حياته  
ولم يكتب رسالة غرامية واحدة،  
لذلك يعتمد عليها كثيراً.

الجزار يوقظ الثور وهو يمسح على ظهره كيتيم  
وسكينه في يده الأخرى..  
الثور يحفظ اتجاه القبلة جيداً،  
وأنا بانتظار قيامته.

أتذكّر فقيه قريننا  
كلما رأيت بائع الكباب يلقي بالكُبّة إلى الزيت،  
سألته عن تفسير آية فقال لي:  
كما يفعل بائع الكباب تماماً..  
اللعنة عليك أيها الفقيه،  
أتذكّرك وأنت تتلصّص على النساء  
من خلف عمامتك المنحرفة.

المؤذن يسعل كعادته حين يجرب المايكروفون،  
لم يعد يخرج من بيته مبلولاً بعد وفاة زوجته  
ولم يعد يسبغ وضوءه..  
أصبح يفعل كل هذا لوحده في النهار  
لأن الليل ليس له عيون.

النوافذ الصغيرة تضاء الآن،  
خلف هذه الجدران من يتحسّسون مناشفهم  
كي لا تفوتهم صلاة الفجر،  
زجاج النوافذ الصغيرة يتغطّى بالبخار الساخن..  
أتخيل امرأة تلوي شعرها المبلول  
وترسم قلباً على بخار الزجاج..  
ربما تصبح هذه المرأة ذات يوم رسامة  
وتستيقظ فجراً  
لترسم قلوباً على سلطة الكباب.

كثلاجةٍ بمزاجٍ ساخن  
كسماءٍ مسقوفةٍ بالإسمنت،  
كقطٍّ يقف على سكة القطار  
ويغطي رأسه بعلبة معدنية..  
هكذا أبدو،  
أَتَقَمَّصُ الأشياء، وأقوم بدور صنوبرٍ صديئٍ  
يقطرُ باستمرارٍ ليلفت إليه الأنظار..  
أُحَلِّقُ مثل كيسٍ بلاستيكي  
تمت إحالته إلى التقاعد ليتفرغ للطيران ومراوغة الريح،  
ليُلفت إليه الأنظار أيضاً..  
أُخْتَبِئُ مثل حبة ملح بين كومة من الشُّكر،  
ستلفظني النملُ وتتركني وحيداً  
بعد أن تنتهي من جرد غنيمتها.

في طفولتي  
كنت أتمرّن على الكتابة بيدي اليسرى  
من باب الاحتياط  
في حال انقطعت يدي اليمنى..  
كنت خائفاً من فقدان الكتابة  
أكثر من فقدان يدي.

أنزل في درج البيت  
بعينين مغمضتين  
لأتعلم المشي في الظلام كالعميان،  
وأعد درجات السلم بقدمي.

أمشي وأنا أعرج،  
لأجبر السيارات على تخفيف سرعتها،  
أعبرُ الشارع كمعاق  
حين أخرج من باب السينما الأهلية،  
كي لا يعرفني أحد  
ويخبر أبي،  
نظرة الناس إلى السينما،  
في تلك الأيام  
كنظرهم للماخور.

يعجبني لمعان الألمونيوم  
الذي يصنعون منه العكازات،  
وذلك الزرّ البارز  
الذي يتحكّم في تطويل العكاز أو تقصيره،  
كان جارنا محمد مصلح يعتني بعكازه كثيراً،  
يضع قطعة من المطاط الأسود  
في طرف عمود الألمنيوم،  
ويلصق الإسفنج ليشعر بالليونة  
حين يتكئ بإبطيه على العكاز.

استعرت ذلك العكاز كثيراً  
بين صلاة المغرب والعشاء،  
وأعيده إلى الجامع  
قبل أن يكمل جارنا تشهده الأخير.

طاولة غسل الموتى  
مربوطة بسلسلة في صرح المسجد،  
تمددت عليها فشعرت بألم في ظهري،  
لم أجرؤ أن أسأل أحمد زياد، المكلف بغسل الموتى:  
لماذا لا يضع بعض الإسفنج  
على هذه الخشبة القاسية  
ليريح الموتى ظهورهم عليها  
وهم يغتسلون للمرة الأخيرة؟

لماذا يربطها إلى خزان الماء،  
هل هناك من ينوي سرقة هذه الخشبة فعلاً؟  
إنها خشبة ميتة،  
وإلا كيف تصمد  
حين يغسلون عليها الأمهات؟

محمود صديق الطفولة،  
كنا نتشارك حلوى أبو عود  
مصّة بمصّة،

وندغدغ أقدام المصلين أثناء سجودهم  
فيمتلئ المسجد بالتسبيح والقهقهات،  
كأننا نختبر خشوعهم.

جابر الفلاح قطع صلاته ليصفع محمود بيده الغليظة  
فسقط كذباً..

كانت قدماي أسرع من بطش يده،  
عدت

لأجد محمود جالسا في صرح الجامع  
يواجه الرياح بشفةٍ أرنبية  
وأنفٍ يتدفق منها دمٌ لزج.

(الأشرم) ..

هكذا كانوا ينادونه،

أتخيله

على ظهر فيل،

ذاهباً لهدم الجامع

ودهس جابر الفلاح.

أقنعه كل يوم أنه مختلف

لأن القبلة بفم أشرم

تساوي قبلتين.

الوقورون جداً..  
الذين يمشون كرجالٍ آليين،  
يتنفسون بانتظام  
وكأنهم يمارسون رياضة اليوغا،  
يصافحونك  
كأنهم يناولونك جائزة الأوسكار،  
ويتحدثون بأصواتٍ إذاعية  
وأنت تنظر إلى شفاههم  
خوفاً من أن يكون كلامهم مدبلجاً.

الوقورون جداً..  
محرومون من التلفظ بكلمات نائية،  
من التفاعل مع أغنية  
حتى تدمع عيونهم،  
محرومون من الضحك بعفوية  
من قول نكتة إباحية،  
من أكل الآيس كريم في الشارع  
والجلوس على الرصيف  
لتدخين سيجارة مُتَعَبَة.

لا أحب الذين يتداولون الحِكم  
ويرددونها باستمرار..  
الذين يرتبون ثيابهم في خزانة الملابس  
بعناية مبالغ فيها..  
الذين تبدو مكتباتهم كأن يداً لم تلمسها..  
الذين يمسحون زجاج سياراتهم دون سبب..  
الذين يقفون أمام المرأة طويلاً  
كأنهم يحاولون إيجاد الفروقات السبعة.

تلك المسامات التي في أغوار الحلق..  
المسامات الغارقة في بحور اللعاب،  
المسامات التي تشبه الأخاديد  
حين تنفتح لنقل المذاق  
وتنغلق، قَرَفًا، حين مرور الطعام،  
المسامات التي تنتحر بأكبر كمية من اللعاب  
حين تخطر على بالها رائحة الفلفل الحار..  
أراها جيداً  
كما لو أنني أشاهد فيلماً علمياً،  
هذه المسامات تكبر في نظري،  
لا لكثرة احترامها  
فالعَدسة التي أخبئها في عينيَّ  
تجعل كلَّ شيء كبيراً رغم تفاهته.

اللعاب لم يعد صالحاً للاستمناء،  
لم يعد مناسباً لجلب المحبة،  
توقف العرسان عن خلط العصير باللُّعاب..  
أصحاب الرقية الشرعية  
ما زالوا ييصقون في وجوه المرضى  
وهم يقولون: "بسم الله أرقيك!"

البصاق احتقار ومحبة،  
واللعاب ذخيرة لا تنفذ..  
ما زلنا نستمتع بلعق طوابع البريد،  
رغم أننا نبصقها فوراً.

المسامات التي في أقاصي الحلق  
تشبه عمّال المناجم،  
لا.. ليس تماماً..

تشبه أولئك الذين يلقون بالفحم  
إلى بطن الباخرة المشتعل.

المسامات تموت حين تكون مرتبكة،  
لذلك نغرقها بالماء،  
محاولين إنعاشها حين نشعر بالعطش.

المسامات تتوقف لتعدّ بعضها  
كطفلٍ يعدُّ قناديل الزينة في بيت الفرح.

أناسٌ كثيرون ما زلت أشتمهم حتى الآن..  
كانوا يمسكون خدي ويقولون لي:  
"أيش اسمك يا بطل؟"  
وحين يقبّلني أحدهم  
أبصق في يدي وأمسح تلك القبلة.

بعضهم يمسح على رأسي كأنني يتيم،  
وأنا ممسك بأصبع أبي..  
أبصق في يدي أيضاً وأصلح شعري المتناثر،  
وأبصق ثانية في ثوب هذا اللعين  
بمجرد أن يلتفت.

أبتسم للأطفال دون أن أعبت بشعرهم  
وسؤالهم عن أسمائهم..

دون سؤالهم عن فصلهم الدراسي  
وعن أسماء أمهاتهم مقابل عشرة ريالات.  
كان الفقيه يسألنا عن أسماء أمهاتنا،  
نصف الطلاب كانت إجابتهم "حواء".

تتشابه أسماء النساء في قريننا  
ليس هناك ديانا ولا نانسي ولا ريف،  
كلها أسماء عتيقة ومطمورة مثل كنز.

أنتفُ ريشةً من جناح هذا الليل،  
لأنظف بها أسناني،  
لن أكتب بها شيئاً  
فأنا في عصر الكيبورد..  
أبدأ كتابة هذا النص ببعض العبثية،  
الرزانة  
ليست بهاراً لإضافتها على الكتابة،  
لذلك لا أحب تولستوي كثيراً  
ولا يستهويني تنميق جبران  
وكأنه يطرز صدرية..  
ما علاقتي بكل هؤلاء؟

الريشة التي نتفتها من جناح الليل  
سأضعها على قبعة صغيرة  
وأدعي أن هذه القبعة لم تبارح رأسي في طفولتي..  
سأكذب على أحفادي  
بأنني انتزعتها من جناح نسر،  
سأخبر الأدباء  
أنها الريشة التي كتب بها المتنبي قصيدته الأخيرة..  
ربما أمنحها لطفل صغير بعد ختانه  
لتلطيف الجرح،  
أو لطفلة ثقبوا أذنيها.

للريش استخدامات عديدة،  
القتلة التسلسليون يضعون ريشة فوق كل ضحية..  
العشاق يهدون الريش لحبيباتهم  
باعتبارهن ضحايا غير تسلسليات،  
المصارعون يستخدمونها للتدليل على أوزانهم..  
الكرماء يؤكدون لضيوفهم  
أنهم كانوا خفيفين كريشة..  
النعاس يستعجلني لإكمال النص  
قبل أن أطفو كريشة  
في النهر الذي كانت تشرب منه "فلونة"  
وتبتسم لنفسها في صفحة الماء.

لست معنياً بمجدلية الوجود الأول للبيضة والدجاجة،  
السقف الأبيض يُشعّرنِي بأني مسجون بداخل بيضة..  
أتذكر جدي وهو يقول: "بير من حلبة".

الزوجة تشبه بعض الأصدقاء،  
كنت أشرب زلال البيض حين انكسرت يد أخي..  
على الريق يكون مفعولها ناجعاً،  
من أين جاءت "ناجعاً" هذه؟  
على الريق كل شيء لذيذ ما عدا البيض وقطرة العيون.

كبر أخي..  
انجبر عظمه المكسور..  
وكلما غيرتُ ملابسِي تساقط بعض الريش.

في بركة شهارة التي كنت أتعلم فيها السباحة  
أضعتُ ساعة أبي..  
رشاني بساعته الـ "ويست إند"  
مقابل ربطتي بالحبل وإلقائي في الماء،  
كان ذلك قبل اختراع التيوب  
والأكياس الهوائية.

أصبح مربوطاً مثل جرو  
أبكى وأبتلع الماء من أنفي وفمي،  
وأبي يؤكد لي أنني سأكون سباحاً ماهراً..  
عدت إلى البيت  
بجلدٍ ملأت أُمي كل تشققاته بالفازلين  
وأذنين مليئتين بالماء.

أين الساعة؟

لا أدري!!

ربما أخذها مني طفلٌ وأنا في قاع البركة؟

الكثير من الأطفال

يسكنون قعر هذه البركة،

ينامون في شقوقها

كأنهم صفحات ممزقة من كتاب مقدس،

كأنهم نعمة

لا يجوز أن تبقى ملقاة على الأرض.

جمجمة مدفونة تحت غرفتي منذ مئات السنين،  
أشعر بألم أسنانها المتسوسة،  
سقطت هذه الجمجمة  
قبل أن تلقي بأسنانها إلى الشمس  
وتستبدلها بسن غزال.

حين كنت صغيراً  
قال لي أبي: هناك بئر مدفونة..  
الحي الذي نسكره اسمه "بير التبانة"،  
أين ذهبت هذه البئر؟  
أسمع في رأسي ضجيج الدلاء  
وثرثرة الصبايا  
والأصوات التي كان يُلقيها الأطفال في قعر البئر  
فيعود صداها مختلفاً وشاحباً.

في هذه البئر  
سقطت مفاتيح كثيرة  
من صدور النساء،  
سقطت فتاة في اليوم التالي لعرسها...  
سقط أطفال  
كانوا يلاحقون وجوههم على الماء..  
أستطيع أن أرى أصابعهم المقفولة  
وكأنهم عثروا على المفاتيح.

منذ زمن أعيش دون مفاتيح احتياطية،  
لا أحب النسخ المزيفة  
ولست مضطراً للاحتياط.

سيارتي منذ عشر سنوات دون إطار احتياطي..  
جاءت هكذا.. وأحببتها كما هي..  
بطاقة هويتي لا أحملها  
وجودها يشعرني بأنني أنا الاحتياطي.

لا أضع صوري على جدران بيتي،  
لست مغرماً بالبقاء معلقاً على جدار بارد..  
لا أطيق رؤية ملامحي  
على حال واحد خلف إطارات الصور.

كهذا الليل أنا..  
بليدٌ حين أتوقف أمام علامة استفهام  
وأحاول أن أتوكأ عليها،  
حين أمشي بمحاذاة صديقين  
يقتسمان رسالة دافئة من امرأة واحدة..  
حين أجد فاعل خير  
يحمل دلو ماءٍ ليسقي عمود الإنارة.

أتمرّن على التحديق في الأشياء،  
أحدّق دون هدف  
سوى التناقل على اللحظة  
التي ترفض المرور دون تكلفة.

أحدّق بداخلي،  
كأنني أضع عيني في ثقب الحوانيت القديمة:  
ظلام..  
نظارة عمياء..  
قنديل لا يجب أن يلفت إليه الأنظار،  
مرآة تفرك عينيها المرمودتين،  
وعاءٌ مدلوقٌ يُخرج لسانه للسراب..  
عطرٌ زيتيٌّ يسيل بخرجٍ شديدٍ  
ويتحدث كثيراً  
كي يغطّي على رائحته.

يحدث أن يموت الليلُ برداً  
وتكون البطانيةُ مستحيلةً كالبساط السحري..  
أحتاج كتابة روايةٍ تحكي سيرة البطانية  
منذ أن كانت فكرة في رأس القطن،  
ومنذ أن قطفت زهرتها أيدي الجميلات  
وتركنها ملقاةً في سلةٍ إقطاعيةٍ لعدة أيام..  
عن نقعها في نهر من الكيماويات الحارة،  
عن دورانها حول المغزل،  
عن تلوينها بالدّبّة والفواكه  
والحواشي التي كأنها ستوقف نموها،  
عن بقائها في حقبة شفافة تشبه مصداقيتها،  
عن سفرها معصوبة العينين  
بداخل حاوية لا مساحة فيها لقنديل صغير،  
عن بقائها معروضة في واجهة محل الأثاث،

عن العريسين اللذين قررا أن يقتنياها  
وتفاوضا كثيراً بشأنها  
كأنهما سيتبنيان طفلاً،  
عن تجربة البطانية لأول مرة والاحتفاء بها.

البطانية شاهدة على مصداقية المواليد،  
وتوقيت الارتعاشة التي تغرز الأظافر بين خيوطها..  
شاهدة على تفكير من يلتصق بها أكثر من زوجته،  
على الأصابع التي تسري تحتها كأخطبوط شرير  
يستخدمها لتغطية الخجل..  
شاهدة على الروائح والدماء  
ولفّ الجنازات..  
شاهدة على مأساة ابن الجيران  
حين افتدوه بها من النار التي كادت تلتهمه.

الصالة مليئة بالفوضى..  
أقترب من الشلاجة بأقدام مشلولة،  
أجد بداخلها رأساً طازجاً  
ويدين مقطوعتين تغسلان سكيناً،  
ودميةً صغيرةً ترتعش من البرد  
وخيطة عنكبوت  
يتدلى من أضيق الثقوب..  
بإمكان هذا العنكبوت  
أن يتخلّى عن فكرة بناء بيت  
هناك سرير شاغر،  
ولن يضطر إلى النوم معلّقاً بانتظار الذباب.

حين يصبحُ مزاحُ الأحلام ثقيلاً،  
يتدلَّى عنكبوت ضخم من الجحيم  
ويحطُّ على كتفك،  
كنجمة عسكرية  
وأنت في مكان شبه مظلم.

يراك العنكبوت بعينه الصغيرتين  
كجبلٍ ضخم،  
بينما تُصاب بالشلل  
لو أطلَّ من ياقة قميصك،  
أو سقط إلى هاوية ظهرك.

الحديث عن العناكب ليس مناسباً الآن،  
ما زال اليوم في بدايته..  
ربما خرج عنكبوت خرافي من تحت الإسفلت  
والتهمَ السيارات والبيوت،  
كما يحدث في أفلام هوليوود..  
وربما غلّف المدينة بخيوطه  
وحملها على ظهره كزوّادة  
ليثبت لنا أن هناك عوالم أخرى  
لم تخطر على بال فيلم،  
وبدون شبّاك تذاكر.

تصحو من نومك على أغنية:  
"في الطايف القلب ساكن، وأنا لوحدي غريب"..  
ليأتي صوت بائع البيض والملح:  
"البيض البيض البيض..  
الملح الملح الملح،  
خمسة أكياس ملح بـ ١٠٠ ريال..  
يا حراجاه يا رواجاه"..  
سمعت هذه الأغنية قبل عشرين عاماً..  
سائق سيارة "مازدا" كان يرفع صوت الأغنية  
أمام منزل "طايفة"  
فيسمعه كل سكان الحارة..

أنجبت امرأته طفلاً فأسماه "طايـف"،  
أنجبت طفلاً آخر فأسماه "طَوّاف"،  
وثالثاً أسماه "طَوَف".

امتلك سيارة جديدة،  
ما زال يترنّم بتلك الأغنية،  
تزوجت "طايـفة"  
ماتت "طايـفة"  
مات "علي السّمه"..  
أطلّ من الشباك لأصرخ في وجه صاحب البيض:  
"اليوم جمعة.. نريد أن ننام"..  
سمعتُ طفلاً يناديه:  
يا عمّ طايـف، بكم الطبق البيض الكبير؟

الليلة باردة جداً،  
ومزاجي كصفحة زنك في منتصف النهار..  
أتذكّر إعلانات "سينالكو" برتقال،  
تلك المرأة كانت ضحكتها حامضةً  
وهي تمسك بالقارورة،  
وترتدي قميصاً مطرزاً  
كأنها زوجة لويس الخامس عشر.

هذه الليلة العمياء  
تتعثر بأنفاسي المتسارعة،  
تعرف أن دمي متخثر  
وتخضّ قلبي كما لو أنه علبة زبادي.

البالون سينفجر  
ونحن نستعرض أنفاسنا الطويلة،  
تماماً كمن يمزح مع مدفع مُهمَل في زاوية المتحف  
وقد نسي كل تعليمات الأمان.

نخاطر كثيراً  
وننخدع بطُعمٍ رخيص،  
كما ينخدع حوت بسمكة بلاستيكية..  
لسنا ساذجين إلى هذا الحد  
لكننا نبحت عن تبرير  
لنوهم أنفسنا  
أننا كنا صادقين تجاه كل هذا الزيف.

لم يعد يدهشني شيء..  
الاكتشافات التي توصل إليها العلم  
كنت أعرفها وأفكر فيها..  
مقولات الحكماء والفلاسفة التي ندهش بها  
ليست خارقة،  
هي بداخلنا منذ زمن..  
ندهش لأنهم استطاعوا صياغتها  
في بضع كلمات فقط.

دهشتي بأول زجاجة كوكاكولا شربتها كاملة  
أكبر من دهشتي  
بروايات دوستوفسكي الآن،  
الفقاعات في معدتي أشعرتني بمعنى الطيران.

تدوير قرص الهاتف الأرضي  
كان أكثر غرابة من دوران الأرض..  
كاسيت الفيديو كسرتة،  
الشريط البني  
وضعتة بين عيني وبين الشمس  
لأرى المصارعين الذين كانوا يتقاتلون بداخله.  
كان شنب "هوجن" المصارع أكبر من الشريط،  
وكانت عضلاته تذكرني بثور العيد.  
أشرطة الفيديو مشبوهة..  
لم يكونوا يضطرون لإخفائها،  
يكفي أن يكتبوا عليها عبارة "محاضرة للشعراوي"  
كي لا يشاهدها أحد.

أشعر بالارتواء حين أملأ سيارتي بالبنزين،  
بالثقة حين أشتري لها إطارات جديدة،  
بإحساس الـ"دوق فليد"  
وهو ينسلُّ إلى غرفته في رأس "غراندائزر".

أول اكتشاف في مراهقتي  
إشعال عود ثقاب في بابٍ صدى،  
أطبق عليه في فمي  
ليخرج الدخان من أنفي  
فأتذكر "فضّة المعدّاي"  
وهي تنفخ شيشتها  
كأنها دراجة نارية.

"روح الموز"..  
عذّبتني كثيراً هذا العنوان الفلسفي،  
أصابع كثيرة من الموز عصروا أرواحها  
بداخل هذه الزجاجاة الصغيرة.  
هكذا كان يخيل إليّ..  
احتفظت بزجاجة فارغة  
لأشتم بقايا تلك الأرواح الصفراء  
وهي تصعد مثل جنياح الأسنان  
فألوح لها بيدي  
كأنني أؤدي مشهداً تراجيدياً في مسلسل "توم سوير".

تمنيت مصادقة فأر أبيض يسكن في جيبي  
وأضعه على كتفي  
وأشتري له قطعة جبن مثقوبة من كل جهاتها.

أكبر إنجاز أنك استطعت أن تبقى على قيد الحياة!  
نجوتَ من الصواريخ،  
من الكوليرا،  
من المجاعة،  
من انفلونزا الخنازير  
من تعليق صورتك في مجلس البيت  
ومن تعازي أصدقاء الفيس بوك  
دون أن تضع إعجاباً بما يكتبونه عنك،  
يفعلون هذا من باب التظاهر،  
فقد اعتادوا الموت كأني خبر عابر.

تساقطَ الكثير من الأصدقاء والجيران،  
كثُرت مشاويرك إلى لمقبرة،  
أصبحت تحفظ صلاة الجنائز جيداً،  
تحفظ سورة (يس) دون قصد  
ودعاء عذاب القبر..  
لم تمت  
رغم أنك دون مرتب،  
ما زلت واقفاً..  
لا تدري إلى متى!

زجاج النافذة المكسور  
يُصَفِّرُ كلما رأى ريحاً،  
يدعو البرد بصفيّره للدخول من هذه الشقوق  
ثم يعوي مثل كلب.

الكلاب لم تعد تنبح..  
النساء  
توقفن عن تهديد أطفالهن بالكلاب..  
ينام الطفل  
وأمه ترتعش خوفاً  
من عيني دُميته اللتين تلمعان في الظلام.

بعد قليل  
سيخرج صديقي المؤذن  
الذي أحدثكم عنه باستمرار..  
يخرج من بيته مبلولاً،  
يستعذب كلَّ قطرة باردة تسقط من أصابعه  
وهو يرى كلَّ سيئاته  
تسقط في تلك القطرة.